كتبها Administrator
الثلاثاء, 25 نوفمبر 2014 16:18 - تم التحديث فى الثلاثاء, 25 نوفمبر 2014 16:20

كلمة شرف

بقلم ل. بانتيليف

ترجمها من الروسية . د. حامد طاهر

يؤسفني جداً أنني لا أستطيع أن أذكر لكم اسم هذا الصبي الصغير , وأين يعيش , ومن هي أمه , ومن هو أبوه , لأنني في المظلام لم أتمكن من رؤية وجهه . فقط أذكر ان أنفه كان به بعض النمش , وأن بنطلونه كان قصيراً , لم يثبت بحزام , وإنما بحمالة تنقلب من فوق الكتف , وتزرر في مكان ما على البطن
.

على نحو ما , توجهت في الصيف إلى حديقة - لا أعرف كيف يسمونها - على جزيرة " فاسيليفسكي " بالقرب من كنسية بيضاء . وكان معي كتاب ممتع , رحت أقرأ فيه , ولم ألاحظ

كيف حل المساء .وعندما ضعفت عيناي من الزغللة , أصبحت القراءة من الصعوبة بمكان فأغلقت الكتاب , ونهضت متجهاً للخروج ..

كانت الحديقة قد بدات تخلو من الناس , وفي ممراتها , راحت المصابيح تشع من آن لآخر . ومن خلف الاشجار رن جرس الحارس . ولأنني خشيت أن تغلق الحديقة , مشيت مسرعاً جداً . وفجأة توقفت . فقد وصل إلى سمعي من خلف بعض الشجيرات أن أحداً يبكي..

انعطفت إلى جانب الطريق , حيث لاح على البعد بيت صغير بلونه الأبيض وسط الظلام : بيت حراسة أو كُشك كذلك الذي يوجد في كل حدائق المدن . وكان بقربه حائط , وقف بجانبه فتى صغير ,لا يزيد عمره عن سبع أو ثماني سنوات, وهو مطاطأ الرأس
,
وينتحب بشدة , دون سلوى من أحد
!

اتجهت إليه وناديته:

-أيها الصغير .. ماذا بك ؟

-لا شيء.

-كيف لا شيء .. من ضربك ؟

-لا أحد.

-ما الذي إذن يبكيك ؟

كان من الصعب أن يتكلم , وكذلك أن يمسك بكل دموعه . وكان ينشج ويفوق (من الفواق: الزغطة), وينشق بأنفه !قلت له:

-هيا نمضي .. أنظر ، فقد صار الوقت متأخراً ، والحديقة تغلق..

وأردت أن أجذبه من يده , لكن الصبي سحب يده بدون حرج قائلاً:

-لا أستطيع

-ما الذي لا تستطيعه ؟

-لا أستطيع السير

-كيف ؟ لماذا ؟ ماذا بك ؟

-لا شيء

-هل أنت مريض ؟

ـــ لا .. صحيح بصحة جيدة.

-إذن لماذا لا تستطيع السير ؟

-أنا حارس

-أي حارس ! أي حارس!

-ماذا أنت ؟ ألا تفهم ! نحن نلعب..

-آه .. مع من تلعب..

سكت المصبي , وبلع ريقه , وقال:

-لا أعرف.

وهنا بدا لي أن المصبي ربما يكون مريضاً , وأن في رأسه خبالاً . قلت له:

-اصغ إلي .. ماذا تلعب ؟ وكيف كان ذلك ؟ تلعب .. ولا تعرف من أنت ؟

-نعم , لا أعرف . فقد كنت أجلس على دكة في الحديقة وأقبل مجموعة كبيرة من الأولاد , وقالوا لى : " هل تريد أن تلعب معنا لعبة الحرب ؟ " فقلت: " أريد . "ورحنا نلعب . قالوا لي : " أنت عريف "وكان هناك ولد كبير أرسلني إلى هنا , وقال: إن لدينا مستودع بارود في هذا الكشك وستكون أنت حارسه . فابق هنا , ولا تنصرف حتى لا أبدلك بشخص آخر قلت له: "حسناً " . قال
:

"أعطني كلمة شرف على أنك لن تذهب."

-هيه..

-قلت له: " كلمة شرف: لن أذهب"

-وماذا بعد ؟

-ها أنا ما زلت واقفاً.. واقفاً, وهم لا يأتون !

حينئذ ابتسمت وسالته:

-حسناً.. وهم وضعوك هنا منذ وقت طويل ؟

-كان النهار لا يزال..

-ولكن أين هم ؟

-أعتقد أنهم مضوا..

-كيف مضوا ؟

-نسوا..

-ولماذا تجلس إذن ؟

-لقد أعطيت كلمة شرف..

أردت أن أبتسم مرة اخرى , لكنني تنبهت فجأة إلى ان الضحك في هذا الموقف لا يليق ,وأن الصبي على حق تماماً . فما دام قد أعطى كلمة شرف , عليه أن يبقى مهما حدث ولو على حياته ! ويستوي بعد ذلك أن يكون الأمر لعبة , أو غير لعبة
.

قلت له :

-إذا كان هذا قد حدث ، فماذا تصنع الآن ؟

قال الصبي , وقد بدأ يبكي:

-لا أدري

أردت أن أقدم له أية مساعدة ممكنة , لكن .. ماذا أستطيع أن أفعل ؟ هل أذهب للبحث عن أولئك الأطفال السخفاء , الذين وضعوه في الحراسة آخذين منه كلمة شرف , وأسرعوا هم إلى منازلهم ؟ لكن أين أجد هؤلاء العفاريت ؟ ! لا شك في أنهم قد تناولوا عشاءهم , وذهبوا إلى الفراش ،

ورأوا عشرات الأحلام . أما الصبي , فيجلس هنا الساعات الطويلة , في الظلام , وهو جائع حقاً ! وسألته:

-هل تريد أن تأكل ؟

-نعم .. أريد.

قلت بعد تفكير:

-حسنًا , أسرع أنت للمنزل لكي تتعشى , وسأبقى أنا بدلًا منك هنا.

وقال المصبي:

-نعم .. لكن هل هذا ممكن ؟

-ولماذا لا يمكن ؟

-إنك لست شخصًا عسكريًا

هرشت قفاي , وقلت:

-صح .. لن تذهب .. حتى أنا لا أستطيع أن أكون مناوبا مكانك . الذي يمكنه أن يقوم بهذا العمل شخص عسكري .. قائد!

وفجأة قفزت إلى ذهني فكرة طيبة , واعتقدت أنني إذا حررت المصبي من كلمة الشرف , فإنني أحرره من الحراسة أيضًا , هكذا ينبغي أن يكون العمل . لكن من الضروري الذهاب للبحث عن شخص عسكري.لم أقل شيئًا للصبي . أبلغته فقط "انتظر لحظة
"
وأسرعت بنفسي إلى مكان الخروج
.

لم تكن بوابة الحديقة قد أغلقت بعد , أما الحارس فقد ذهب إلى أقصى الحديقة , لكي يتصل من هناك بمركز حراسته. وقفت بالقرب من البوابة , ولم يمر بالقرب مني أي شخص عسكري: أي ملازم , أو حتى جندي من المجيش . وكما يبدو لم يكن في الشارع أي شخص يرتدي الملابس العسكرية . وفجأة ظهرت في الجانب الآخر من الشارع مجموعة من المعاطف السوداء .فرحت , وظننت أصحابها بحارة عسكريين , لكنني عندما عبرت الشارع مسرعاً لم أجدهم بحارة , وإنما طلاب صغار في مدرسة صناعية . ومر رجل سكة حديد طويل القامة يرتدي معطفاً جميلاً جداً , مزيناً بعلامة خضراء . لكن هل كان من الممكن لمثل هذا الرجل أن يقف ويستمع لي

أردت أن أعود للحديقة , وجهي مثل قفاي . لكني فجاة , لمحت عند الناصية على محطة الترام " كاب " أحد القادة بإطار أحمر . ويبدو أنني لم أفرح قط في حياتي مثل فرحي في تلك اللحظة . واندفعت نحوه بكل قوتي . لكنني مع الأسف لم الحق به , لأنه كان أسرع مني في الصعود إلى " الترام ". وقفت على المحطة, إلى أن أقبل ضابط شاب , برتبة رائد , وكان يشق طريقه وسط الجمهور المتجمع حول باب العربة . وأسرعت إليه , ممسكاً بذراعه , وصحت
:

-رفيقي الرائد .. دقيقة واحدة .. انتظر .. رفيقي الرائد!

التفت إلي ناظراً باستغراب , وقال:

-ماذا حدث ؟

-هل تريد ان تعرف ماذا حدث ؟ هنا , في حديقة , بالقرب من " كشك " حجري , يجلس طفل صغير منذ ساعات .. إنه لا يستطيع المخروج .. إنه صغير جداً .. إنه يبكي.. فقد أعطى كلمة شرف .

قطب القائد عينيه , ورنا إليَ بدهشة أكبر . ربما ظن هو أيضاً أنني مريض , وأن في رأسي خبالاً .. لكنه قال:

-إنني هنا في عمل ؟

لكن " الترام " كان قد فاته , فنظر إليَ بغيظ , وانتهزت الفرصة فشرحت له القصة بوضوح أكثر , وعندما فهمها لم يعد يفكر , وعلى الفور قال:

-فلنذهب .. لنذهب بالطبع .. لماذا لم تقل هذا لي مباشرة ؟!

وعندما توجهنا إلى الحديقة , كان الحارس قد أغلق البوابة تماماً . وطلبت منه الانتظار عدة دقائق , وقلت له : إن في الحديقة صبياً باقياً , واندفعنا - الرائد وأنا - إلى داخل الحديقة.

وفي الظلام , اكتشفنا بصعوبة البيت الصغير الأبيض , كان الصبي واقفاً في مكانه بالمضبط , حيث تركته . ومرة أخرى كان يبكي بهدوء شديد . ناديته , ففرح جداً ,إلى حد أنه صرخ من الفرح . أما أنا فقلت:

-ها هو ذا .. قد أحضرت قائداً.

اعتدل الصبي في وقفته , ولكي يرى القائد بصورة أفضل , مد جسمه الصغير لأعلى عدة سنتيمترات .. وقال القائد:

-أيها الرفيق الحارس .. أي رتبة تحملها ؟

-أنا عريف.

-رفيقي العريف .. آمرك بترك مركز حراستك , الذي عهد به إليك.

سكت الصبي , وحك أنفه , ثم قال:

-وما هي رتبتك انت . فأنا لا أرى تماماً عدد النجوم التي على كتفك ؟

-أنا رائد.

عندئذ رفع الصبي يده مؤدياً التحية العسكرية , قائلاً:

-حاضر - رفيقي الرائد - بالأمر أترك نقطة الحراسة.

قال هذا بصوت مسموع , وبمهارة بالغة إلى حد أننا لم نتمالك أنفسنا وانفجرنا في الضحك . وابتسم الصبي بسرور وارتياح.

عدنا إلى باب الحديقة المغلق , وانتظرنا عدة لحظات , قبل أن يفتح الحارس لنا القفل المغلق.

ومد الرائد يده محيياً:

-ممتاز يا رفيقي العريف . منك يخرج المحارب الحقيقي .. إلى اللقاء!

وتمتم الصبي ببعض كلمات , قائلاً:

"إلى اللقاء"

وتركنا الرائد , مسرعاً إلى المحطة , نحو " ترامه " الذي كان قادماً . أما أنا , فقد شددت على يد الصغير , وسألته:

-هل يمكنني أن أوصلك ؟

-لا .. فإنا أسكن قريباً من هنا .. إنني لا أخاف.

ونظرت إلى أنفه الصغير ذي النمش , واعتقدت حقاً أنه لا يخاف من شيء . ان الصبي الذي لديه مثل تلك الإرادة القوية , وهذه الكلمة المتينة لا يخشى الظلام , ولا يخاف من المجرمين , ولا يرتجف من أكثر الاشياء رعباً !

وعندما يكبر , لا ادرى ماذا سيكون عندما يكبر ؟ على أي وضع كان , فإن المضمون بالفعل أنه سيكون شخصاً حقيقياً.

هكذا فكرت وأنا أسير وحدي مسروراً من تعرفى على هذا الصبي الذي أشد على يديه بقوة .. مرة أخرى!